نحو بعث آخر للتعددية في الإسلام

سعيد الشعيلي

في مقاله «الإسلام بين الأحادية والتعددية»، يُشير الطيب تزيني إلى السِّجالات التي تحدثُ بين الإسلام وبين المناوئين له.. مُعتبرا أنَّ المرحلة المعاصرة هي من أكثر المراحل قلقا وإشكالية في التاريخ الإسلامي. وفي بداية مقاله، يشرحُ الطيِّب هجومَ العولمة على الإسلام التي رفعت المعركة إلى سقفها في سياق مهمة كبرى أخذتها على عاتقها، وهي تفكيك الهويات المثمرة تاريخيا مثل: «العقلانية والتاريخية والقيم المستنيرة»، وإحياء الهويات التي دللت على أنها مُعيقة للتقدم البشري؛ مثل: «الطائفية والمذهبية الدينية الضيقة والعشائرية...».

وفي هذا السياق، لا تعادي العولمة الإسلام عداء تاما، بل تأخذ منه ما يتوافق مع رؤيتها كشذرات، وتقدم هذه الشذرات على أنها مصدر للإرهاب، مقسِّمة البلاد والعباد إلى فريق ينتج الإرهاب ويمارسه، معرِّضا العالم بذلك للاضطراب والفوضى، وفريق آخر يدفع ضريبته في أمنه وثروته ومستقبله. هذه الرؤية الانتقائية والملفقة للإسلام والتي تقدمها أيدلوجيا العولمة تفصح عن نفسها عبر عمليتين؛ الأولى تتمثل في انتزاع الفكر الإسلامي في فترات النزول والتجادل معه وفصله من سياقه التاريخي، والثانية تتمثل في مقولة «الشرق شرق والغرب غرب ولا يلتقيان».

ويقدِّم الغرب نفسه على أنَّه مؤسِّس على الديمقراطية، واحترام حقوق الإنسان والإقرار بالتعددية والحرية، بينما يقدَّمُ الشرق على أنه على النقيض من ذلك، وتتحوَّل فكرة التعددية إلى سجال ما بين المفكرين الإسلاميين وبين كثير من المستشرقين؛ حيث يقدم البعض الإسلام على أنه "دين التوحيد"، وكأنه بهذا يلغي أيَّ وُجود للتعددية فيه، بينما ورد في الإسلام ما يثبت عكس ذلك؛ حيث جاء في القرآن الكريم "إنَّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء". وكأنَّ الإسلام يُقرُّ بالتعددية حتى فيه هو كنظام واحد، حيث يقر بإمكانية اختلاف الأفكار. وبما أن الإسلام جاء "هدى للناس" و"رحمة للعالمين"؛ فمن الضروري أنْ يُقر باختلاف الأفكار وبالتعددية الموجودة عند الناس، كي يحقق مبدأ الرحمة التي تشمل كل الناس. وعلى هذا، فالكاتب يرى أن القرآن الكريم قدم نفسه عبر عملية تجادل بين المطلق والزمني، بين الغيبي والإنساني، فبقدر ما هو "مُنتم للسماء، بقدر ما هو مُلتصق بالأرض التصاقا كثيفا وعميقا"؛ فالآية تقول: "ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة". إن فكرتي "الأحادية" و"التعددية" في الإسلام هما حالتان ضروريتان لتأسيس نسق فكري يراد له أن يكون منفتحا غير منغلق ومرنا غير متشدد.

... إنَّ مسألة التعددية في الأصل الإسلامي -القرآن والسنة- تظهر في مستويين اثنين: العلاقة بين المذاهب المختلفة في الإسلام نفسه كمنظومة من المبادئ والاعتقادات "الناس أمة واحدة"، وهذه يقدِّم لها فخر الدين الرازي تعليلا بقوله: "لو كان القرآن مُحكما بالكلية، لما كان مطابقا إلا لمذهب واحد، وكان تصريحه مبطلا لكل ما سوى هذا المذهب؛ وذلك ما ينفر أرباب المذاهب عن قبوله والنظر فيه". أما المستوى الثاني، فيتمثل في العلاقة بين الإسلام وغيره من الأديان والمذاهب؛ فالقرآن يقدِّم معيارا يحتكم إليه الناس وهو "العقل"، وهذا المعيار هو نفسه المعيار المنهجي لمصداقية الآخر؛ وبذلك تبرز الدعوة للحوار تحت منهج عقلاني للوصول إلى كلمة سواء.

وفي نهاية المقال، يفرِّق الكاتب بين "الإسلام" وبين "الفكر الإسلامي"، ويرى أنَّ مُنتجي الفكر الإسلامي عليهم أن يكونوا أكثر تواضعا في إنتاجهم الفكري، وعليهم تقبل النقد سواء فيما يصدر عن "الدين" أو "الفكر الديني"؛ بهدف تعميقه وتقريبه من الآخر بكيفية عقلية مرنة.

وختاما: أستطيع القول بأنَّ الطيب تزيني استطاع أن يقدِّم لنا تحليلا لبعض الصراعات التي يشهدها العالم الإسلامي؛ فبإسقاط ما جاء في المقال على واقعنا المعاصر، نجد أنَّ الكثير من الدول الإسلامية تفككت بعد الغزو الغربي والأمريكي الذي جاء مبشرا بالحرية والعدل والديمقراطية. ومن أبرز الأمثلة على ذلك: دولة العراق، الذي كان موحَّدا تحت راية واحدة، وأصبح اليوم دولة واحدة مقسَّمة تقسيما طائفيا؛ فبعد أن كانت النعرات المذهبية الضيقة تكاد تكون شبه مُنعدمة، عادت بقوة بعد الغزو، وظهر الإسلام المتطرف الإرهابي بقوة في ظل تهميش للإسلام الحقيقي التعدُّدي.

إنَّ المسلمين اليوم في وضع مأساوي ضيق، فالمسلم في بلاد الغرب ينظر له على أنه بؤرة للإرهاب، وحتى يستطيع العيش بسلام عليه أن يُداهن في الكثير من مبادئه، والغرب الذي يقدم نفسه على أنه عادل ومساوٍ في الحقوق، ينظر نظرة تمييز لهذا المسلم، ففي كل اعتداء هناك يُعامل على أنه إرهاب إسلامي إذا كان من قام به مسلم، بينما يُعامل على أساس عمل فردي إذا صدر من غير المسلم. ولعل ما يحتاجه المسلمون اليوم هو بعث حقيقي للإسلام دين التوحيد الذي يسمح بالتعددية بين أفراده على اختلاف طوائفهم، وأن يتم هذا الشيء بالرجوع للقرآن الكريم؛ حيث تصبح المقولة التاريخية "اختلاف العلماء رحمة" هي واقع حقيقي لمعنى الرحمة، لا أن يكون اختلاف عالمين فقط في مذهبين مختلفين سببًا لإقصاء الآخر وتكفيره، ومن ثم استباحة دمه، وكأنَّ حقه في الحياة انعدم بسبب فكرة هي من الفروع وليست من أصل الدين. وحتى في التعامل مع الآخر من غير المسلمين يجب أن يكون هناك تقبل لغير المسلم ما دام ليس محاربا ولا يحمل فكرا عدائيًا مُتطرفا؛ فأصحاب الذمة كانوا تحت حماية رسول الله في صدر الإسلام، ولم يأمر بقتلهم أو عدم التعامل معهم بسبب الاختلاف الديني.

ska.sm90@gmail.com